بسم الله الرحمن الرحيم

في ذكـرى عـام هجـري جـديد

1 من المحرم 1441 –

31 أغسطس 2019

الهجرة .. دروس وعبر

صناعة الأمل

من كان يظن أنّ يكون أولئك النفر الستة بداية مرحلة جديدة من العز والتمكين، والبذرة الأولى لشجرة باسقة ظلت تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؟

ومن كان يخطر بباله أن تشهد تلك الليلة من ليالي الموسم ورسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر يطوفان بمنى حتى إذا سمعا صوت رجال يتكلمون مالا إليهم فقالا وقالوا، وتحدثا وسمعوا، وبينا فأصغوا فانشرحت القلوب، ولانت الأفئدة ونطقت الألسنة بالشهادتين، وإذا بأولئك النفر من شباب يثرب يطلقون الشرارة الأولى من نار الإسلام العظيمة التي أحرقت الباطل فتركته هشيما تذروه الرياح!

من كان يظن أن تلك الليلة كانت تشهد كتابة السطور الأولى لملحمة المجد والعزة؟

إن نصر الله يأتي للمؤمن من حيث لا يحتسب ولا يقدر، لقد طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجتمعات القبائل وقصد الرؤساء وتوجه بالدعوة إلى الوجهاء وسار إلى الطائف، فعل ذلك كله عشر سنوات وهو يرجو أن يجد عند أصحاب الجاه والمنعة نصرة وتأييدًا،

كان يقول في كل موسم: "من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي".

ومع كل هذا لم يجد من يؤويه ولا من ينصره، بل لقد كان الرجل من أهل اليمن أو من مضر يخرج إلى مكة فيأتيه قومه فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك!

لم تأت النصرة والحماية والتمكين من تلك القبائل العظيمة ذات المال والسلاح، وإنما جاءت من ستة نفر جاءوا على ضعف وقلة.

"إنها التقادير يوم يأذن الله بالفرج من عنده، ويأتي النصر من قلب المحنة، والنور من كبد الظلماء، والله تعالى هو المؤيد والناصر، والبشر عاجزون أمام موعود الله".

ستة نفر من أهل يثرب كلهم من الخزرج دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ولم يكن يتوقع منهم نصرة وإنما أراد دعوتهم فآمنوا وأسلموا... ثم تتابعت الأحداث على نسق عجيب.

ويتجدد الأمل .. مع بيعة العقبة الثانية:

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه: حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم تبق من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعا فقلنا: حتى متى نترك رسول الله يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟

فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه الموسم، فواعدناه العقبة فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟

قال: "على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم وأزواجكم، ولكم الجنة".

قال جابر: فقمنا إليه فبايعناه.

أرأيتم.. يعرض الكبراء والزعماء ويستكبر الملأ وتتألب القبائل وتتآمر الوفود وتسد الأبواب.. ثم تكون بداية الخلاص بعد ذلك كله في ستة نفر لا حول لهم ولا قوة.

فهل يدرك هذا المعنى المتعلقون بأذيال المادية الصارخة والنافضون أيديهم من قدرة الله وعظمته؟

وهل يدرك هذا المعنى الغارقون في تشاؤمهم اليائسون من فرج قريب لهذه الأمة المنكوبة المغلوبة على أمرها؟

إن الله ليضع نصره حيث شاء وبيد من شاء وعلينا أن نعمل حتى تصل دعوتنا إلى العالمين، وألا نحتقر أحدا ولا نستكبر على أحد،

وعلينا أن نواصل سيرنا مهما يظلم الليل وتشتد الأحزان، فمن يدري لعل الله يصنع لنا في حلكات ليلنا الداجي خيوط فجر واعد؟

ومن يدري لعل آلامنا هذه مخاض العزة والتمكين.

إننا على أبواب عام هجري جديد:

يقبل محملاً بما فيه، وعلى أعقاب عام هجري مودع يمضي بما استودعناه

نقف متذكرين هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم .. إنها ذكرى الاعتبار والاتعاظ لا ذكرى الاحتفال والابتداع.

إنها وقفة نستقرئ فيها فصلاً من فصول الحياة خطه رسول الله وصحبه.

إنها رجعة إلى العقل في زمن طاشت فيه العقول. ووقفة مع الروح في زمن أسكرت الأرواح فيه مادية صخابة جرافة.

إن من أعظم دروس الهجرة وأجل عبراتها "صناعة الأمل"..

نعم، إن الهجرة تعلِّم المؤمنين فن صناعة الأمل.

الأمل في موعود الله. الأمل في نصر الله. الأمل في مستقبل مشرق لـ "لا إله إلا الله".

الأمل في الفرج بعد الشدة، والعزة بعد الذلة، والنصر بعد الهزيمة.

لقد رأيتم كيف صنع ستة نفر من يثرب أمل النصر والتمكين.

وها هو رسول الله يصنع الأمل مرة أخرى حين عزمت قريش على قتله.

ويتجدد الأمل .. مع لحظة خروج النبي – صلى الله عليه وسلم من داره :

قال ابن إسحاق: فلما كانت عتمة من الليل، اجتمعوا على بابه يرصدونه متى نام فيثبون عليه.

وعلى كل حساب مادي يقطع بهلاك رسول الله، كيف لا وهو في الدار والقوم محيطون بها إحاطة السوار بالمعصم.

مع ذلك صنع رسول الله الأمل، وأوكل أمره إلى ربه وخرج يتلو قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} [يس: 9].

خرج الأسير المحصور يذرّ التراب على الرءوس المستكبرة التي أرادت قتله!

وكان هذا التراب المذرور رمز الفشل والخيبة اللذين لزما المشركين فيما استقبلوا من أمرهم. فانظر كيف انبلج فجر الأمل من قلب ظلمة سوداء.

ويمضي رسول الله في طريقه يحث الخُطا حتى انتهى وصاحبه إلى جبل ثور، وهو جبل شامخ وعر الطريق صعب المرتقى، فحفيت قدما رسول الله وهو يرتقيه، فحمله أبو بكر وبلغ به غار ثور ومكثا هناك ثلاثة أيام.

مرة أخرى يصنع الأمل .. في الغار:

ومرة أخرى يصنع الأمل في قلب المحنة، وتتغشى القلوب سكينة من الله وهي في أتون القلق والتوجس والخوف.. يصل المطاردون إلى باب الغار، ويسمع الرجلان وقع أقدامهم، ويهمس أبو بكر: يا رسول الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره لرآنا!

فيقول : "يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟".

وكان ما كان، ورجع المشركون بعد أن لم يكن بينهم وبين مطلوبهم إلا خطوات!

فانظر مرة أخرى كيف تنقشع عتمة الليل عن صباح جميل. وكيف تتغشى عناية الله عباده المؤمنين {إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج: 38].

وإذا العناية لاحظتك عيونها *** نم فالحوادث كلهن أمانُ

ويسير الصاحبان في طريق طويل موحش غير مأهول، لا خفارة لهما من بشر، ولا سلاح عندهما يقيهما:

لا دروع سابغات لا قنا *** مشرعات لا سيوف منتضاه

قوة الإيمان تغني ربها *** عن غرار السيف أو سن القناة

ومن الإيمان أمن وارف *** ومن التقوى حصون للتقاة

قصة سراقة:

يسير الصاحبان حتى إذا كانا في طريق الساحل لحق بهما سراقة بن مالك طامعا في جائزة قريش مؤملا أن ينال منهما ما عجزت عنه قريش كلها، فطفق يشتد حتى دنا منهما وسمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومرة ثالثة، وهذا الفارس على وشك أن يقبض عليهما ليقودهما أسيرين إلى قريش تذيقهما النكال، مرة ثالثة يصنع الأمل، ولا يلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سراقة ولا يبالي به وكأن شيئًا لم يكن، يقول له أبو بكر: يا رسول الله، هذا الطلب قد لحقنا. فيقول له مقالته الأولى: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا} [التوبة: 40].

لقد اصطنع الأمل في الله ونصره فنصره الله وساخت قدما فرس سراقة، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء كالدخان، فأدرك سراقة أنهم ممنوعون منه.

ومرة ثالثة جاء النصر للرسول صلى الله عليه وسلم من حيث لا يحتسب. وعاد سراقة يقول لكل من قابله في طريقه ذاك: ارجع فقد كفيتكم ما هاهنا، فكان أول النهار جاهدًا عليهما، وآخره حارسًا لهما.

ويبلغ أهل المدينة خبر هجرة الرسول، الرجل الذي قدم لهم الحياة وصنع لهم الأمل، الرجل الذي أنقذهم من أن يكونوا حطبا لجهنم، يبلغهم الخبر فيخرجون كل غداة لاستقباله حتى تردهم الظهيرة.

كيف لا وقد اقتربت اللحظة التي كانوا يحصون لها الأيام ويعدون الساعات؟

قال الزبير: فانقلبوا يوما بعدما أطالوا انتظاره فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود أطمًا من آطامهم لينظر إليه، فبصر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا صاحبكم الذي تنتظرون.

فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهر الحرة. تلقوه بقلوب تفيض سعادة وفرحًا... وتأمل مظاهر الفرحة الغامرة:

– قال أنس: "شهدت يوم دخل النبي المدينة فلم أر يومًا أحسن منه ولا أضوأ منه" .

– قال أبو بكر: "ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدم المدينة وخرج الناس حتى دخلنا في الطريق وصاح النساء والخدام والغلمان: جاء رسول الله، الله أكبر، جاء محمد، جاء رسول الله" .

– قال أنس: "لما قدم رسول الله المدينة لعبت الحبشة لقدومه؛ فرحًا بذلك لعبوا بحرابهم" .

وهكذا تعلمنا الهجرة في كل فصل من فصولها كيف نصنع الأمل، ونترقب ولادة النور من رحم الظلمة، وخروج الخير من قلب الشر، وانبثاق الفرج من كبد الأزمات.

ما أحوجنا إلى فن صناعة الأمل!

ما أحوجنا ونحن في هذا الزمن، زمن الهزائم والانكسارات والجراحات إلى تعلم فن صناعة الأمل. فمن يدري؟ ربما كانت هذه المصائب بابًا إلى خير مجهول، ورب محنة في طيها منحة، أوَليس قد قال الله: {وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} [البقرة: 216].

لقد ضاقت مكة برسول الله، ومكرت به فجعل نصره وتمكينه في المدينة.

وأوجفت قبائل العرب على أبي بكر مرتدة، وظن الظانون أن الإسلام زائل لا محالة، فإذا به يمتد من بعد ليعم أرجاء الأرض.

وهاجت الفتن في الأمة بعد عثمان حتى قيل لا قرار لها، ثم عادت المياه إلى مجراها.

وأطبق التتار على أمة الإسلام حتى أبادوا حاضرتها بغداد سرة الدنيا، وقتلوا في بغداد وحدها مليوني مسلم، وقيل: ذهبت ريح الإسلام، فكسر الله أعداءه في عين جالوت وعاد للأمة مجدها.

وتمالأ الصليبيون وجيّشوا جيوشهم وخاضت خيولهم في دماء المسلمين إلى ركبها حتى إذا استيئس ضعيف الإيمان، نهض صلاح الدين فرجحت الكفة الطائشة وطاشت الراجحة، وابتسم بيت المقدس من جديد.

وهكذا يعقب الفرج الشدة، ويتبع الهزيمة النصر، ويؤذن الفجر على أذيال ليل مهزوم... فلمَ اليأس والقنوط؟

اشتدي أزمة تنفرجي *** قد آذن ليلك بالبلج

إن اليأس والقنوط ليسا من خلق المسلم، قال سبحانه: {وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: 87].

قال ابن مسعود رضى الله عنه: "أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله".

إذا اشتملت على اليأس القلوب *** وضاق لما به الصدر الرحيب
ولم تر لانكشاف الضر وجها *** ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث *** يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات وإن تناهت *** فموصول بها الفرج القريب

فيا أيها الغيورون على أمة الإسلام، يا من احترقت قلوبهم لآلامها، نعمًّا هذا الألم! وما أصدقه على إيمانكم وحبكم لدينكم!

ولكن لا يبلغن بكم اليأس مبلغه؛ فإن الذي أهلك فرعون وعادًا وثمود وأصحاب الأيكة، والذي رد التتار ودحر الصليبيين قادرٌ على أن يمزق شمل الأعداء، ويبدد غطرسة الصهيونية، ويحطم أصنام الوثنية المعاصرة.

وأنت.. يا من ابتلاك الله في رزقك أو صحتك أو ولدك.

أنت.. يا من جهدك الفقر وانتهكتك العلل وأخذ الموت أحبابك، وعدت في أعين الناس كالدرهم الزائف لا يقبله أحد.

أنت.. يا من أصبحت في مزاولة الدنيا كعاصر الحجر يريد أن يشرب منه، ويا من سدت في وجهك منافذ الرزق وأبواب الحلال.

أنت.. هل نسيت رحمة الله وفضله؟ من دروس الهجرة .. عدم تعجل النصر

على الشباب المسلم بعامة، وشباب الحركة الإسلامية خاصة: عدم استبطاء النصر، أو التعجل في تحقيق النتائج، وقطف الثمار؛ فذلك آفة خطيرة تؤدي إلى الفشل الذريع، وتنبئ عن الجهل بسنن الله تعالى، وعدم سلامة التكوين وصحة التربية.

ومراعاة هذا الدرس أمر ضروري في إعداد الجيل الذي يحمل الأمانة، ويعمل على تبليغ الدعوة، وإقامة النظام، وهو درسٌ جِدُّ واضح بين الدروس الحركية التي تؤخذ من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

فهذه الهجرة –مثلاً– قد تأخرت بعد البعثة النبوية ثلاثة عشر عامًا، كلها مصاعب ومتاعب.

وحتى خلال التمهيد للهجرة.. هؤلاء الأنصار كانوا في أول لقاء مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة أفراد فقط.

وبعد عام كامل –ياه..!! عام كامل؟!– نعم عام كامل، جاء إليه صلى الله عليه وسلم اثنا عشر رجلاً فقط، وهم الذين بايعوه بيعة العقبة الأولى.

وبعد عام كامل كذلك –ياه..!! عام كامل؟!– نعم عام كامل، جاء إليه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، وهم الذين بايعوه بيعة العقبة الثانية.

بهذا النمو العددي البطيء، والبطء العددي العجيب، ومع مَن؟

مع النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتعجل النتائج أو يستبطئ هذا النمو العددي.

والجواب على ذلك كله: أن الهجرة لم تتأخر، بل إنها لو جاءت قبل ذلك –ولم تكن لتجيء– لخالفت سنة الله وحكمته في بناء النفوس قبل بناء الدولة؛ فدولة دون أفراد تمَّ بناء نفوسهم: سرعان ما تنهار، وأفراد تم بناء نفوسهم دون دولة: سرعان ما قد يقيمون الدولة؛ ولذلك لم تأت الهجرة إلا بعد بناء الأفراد الذين يقيمون الدولة وتربيتهم، وتمحيصهم

والنمو العددي البطيء –فيما نرى– صاحبَهُ أمرٌ في غاية الأهمية، هو النمو الكيفي العظيم الهائل؛ ولذلك ما رأينا من النبي صلى الله عليه وسلم استخفافًا بهذا العدد، ولا استبطاء لنموه العددي، خاصة وأن أعمار الدعوات ونجاح مراحلها أمرٌ يقدره الله –سبحانه وتعالى– بعلمه وحكمته ومشيئته {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: 49].

كما أن النتائج كلها بيد الله تعالى {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [آل عمران: 126].

وما علينا إلا أن نأخذ في الأسباب، فنعمل، ونعمل، ونحسن العمل {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: 105].

فضلاً عن أنه – أي أعمار الدعوات– أمر لا يقاس بالسنين وعددها، ولا يقاس بأعمار الأفراد وقصرها، بل بأمور هي من تدبير الله وصنعه، وتحديده وتقديره. ولا ينبغي أن نُخضِع ما يقدره الله من نجاح، أو ما يدبره الله لنجاح إلى موازيننا، ولا أن نضبط إيقاعه بحسابات أعمارنا، ومراعاة هذه الفائدة أمر ضروري ومهم!

وإلا فإننا بتعجلنا: قد نحفر قبر فشلنا بأيدينا، ونستجلب للدعوة وأهلها الصعاب والعقبات، وننسف جهود السابقين، ونضطر إلى البدء –من جديد، بلا فائدة– من أول الطريق الذي قطع فيه من سبقنا أشواطًا بعيدة.

وعلى ذلك: فالتعجل ضد طبائع الأشياء أولاً، وضد السنن الإلهية في الدعوات، وتكوين أفرادها بما يجعلهم مؤهلين للنجاح في حمل أمانتها، وحسن أداء متطلباتها.

وفهم هذه الفائدة، وحسن الإفادة منها، وجدية الالتزام بها – يعين على عدم الوقوع بين براثن اليأس والإحباط، ويساعد في هدوء الأعصاب، وشمولية النظرة، ودقة الأداء، والإجادة فيه، وتجنُّب الأخطاء، وتحقيق المكاسب، وضمان الوصول إلى الغايات بتوفيق الله تعالى.

والله أكبر ولله الحمد.